

حجاجة المجاز وفق نظرية المساءلة لميشال ماير

The argument for metaphor according to Michel Mayer's Theory of Accountability

نوال جو ابلية^{*1}¹ جامعة المدية، (الجزائر)، n.djouablia@univ-dbkm.dz

تاريخ الإيداع: 2021/08/11

تاريخ المراجعة: 2021/09/16

تاريخ النشر: 2021/12/30

ملخص:

اهتمت المدرسة التداولية في كبرى مباحثها بالقول المنجز، من خلال اهتمامها بالإستراتيجية الخطابية التي تتغير بتغير السياق، ومن ذلك الإستراتيجية الحجاجة التي تتحقق عبر وسائط عدة على غرار البلاغة، فالى أي مدى يمكن للبلاغة -ممثلة في المجاز- تحقيق البعد الإنجازي للخطاب، استنادا إلى نظرية المساءلة ل"ميشال ماير".

إن المجاز وفق نظرية المساءلة ما هو إلا واحدة من هذه العلاقات التي تؤسس لحالة من المساءلة، والتي تفرض على المتلقي اتخاذ موقف معين اتجاه ما يسمع، وبـل وتفرض عليه التحرك في صور متعددة، من ذلك الاستدلال العقلي الذي يتولد من خلال البحث عن المعاني الثاوية خلف المعاني الظاهرة. الكلمات المفتاحية: المجاز، الحجاج، نظرية المساءلة، البلاغة.

Abstract: The deliberative school has been interested in its major topics, with the done saying, through its interest in the discursive strategy that changes with the change of context, including the argumentative strategy that is achieved through several mediums such as rhetoric. Thus, to what extent can rhetoric -particularly represented in metaphor- reach the achievement dimension of discourse, based on the accountability theory of "Michel Mayer".

And that metaphor according to the theory of accountability is only one of these problematic relationships, which impose on the recipient to take a specific position towards what he hears, and even force him to move in multiple forms, from that mental inference that is generated, by searching for secondary meanings behind The meanings shown.

Keywords: Metaphor, argument, Accountability, Rhetoric.

ظل الدرس اللساني إلى وقت قريب مهتما باللغة في صورتها الساكنة، متجاهلاً الشق التفاعلي لها، إلى أن جاءت التداولية وجعلته من صميم مباحثها، إيماناً منها أن اللغة منجز لفظي يتحقق ضمن سياق تواصل اجتماعي، فكان الاهتمام جلياً باستراتيجيات بناء الخطاب، وآليات تأويله، وطرائق تحقيق مقاصده، من ذلك المقصد الحجاجي، الذي تعددت سبل تحقيقه، من اللغة القارة، إلى البلاغة، فالاستدلال البرهاني.

فظهر في خضم ذلك طرح يؤمن بأن اللغة ما هي إشكال يطرح، وقضية يُدفع بها للنقاش، تحت قاعدة "أنا أتكلم فأنا أسأل"، وهو ما أسس له ميشال ماير من خلال نظريته "نظرية المسألة"، عندما أكد أن اللغة هي عملية تواصلية قائمة على فكرة المسألة التي تدفع الذهن إلى البحث عن إجابة، أو إجابات محتملة لهذا التساؤل، وهو ما يحقق إنجازية للخطاب، فهل البلاغة -ممثلة في المجاز- قادرة على الإجابة على ما يثيره الفكر من تساؤل؟ وما هي طبيعة العلاقة التي يتولى المجاز بناءها بين المتخاطبين؟ ثم هل يكفي المجاز ببناء لغة منمقة جميلة فقط؟ أم أنه ينطوي على مقصد حجاجي يعادل الطاقة الحجاجية الكامنة في الخطابات البرهانية؟

1 مفهوم الحجاج:

1.1 الحجاج لغة:

الحجاج من مادة "ح ج ج"، وقد ذكر ابن منظور: «الحجة: البرهان، وقيل الحُجة: ما دفع به الخصم... وقال الأزهري: الحُجة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة... ورجلٌ محجّاج: أي جدلٌ، والتجاج: التخاصم، وجمع الحجة: حججٌ وحجّاجٌ، وحاجه محاجّةٌ وحجّاجٌ: نازعه بالحُجة... وحجّه: يحجّجه: حُجّاً: غلبه على حجته وفي الحديث: "فحجّ آدم موسى" أي غلبه بالحجة... واحتج بالشئ: اتخذ حجة، قال الأزهري: إنما سميت حُجة لأنها تُحجّ أي تقصد، لأن القصد لها وإليها، وكذلك محجة: [الطريق] هي المقصد والمسلك، وفي الحديث: "إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه أي محاجه ومغالبه بإظهار الحجة عليه..."¹، وعلى هذا يكون الحجاج مرادفاً للجدل.

2.1 أهم الدراسات المتعلقة بالحجاج:

أ. عند الغرب:

بالرغم من أن "أوستين J.L. Austin" هو أول من أسس نظرية مكتملة تهتم بالكلام وتأثيراته الفعلية من خلال إيجاد مفهوم العمل بالقول، إلا أن عناية الفلاسفة بالخطاب قديمة، تمتد جذورها إلى الفلسفة اليونانية التي وجدت فيها حقلاً خصباً للنماء والتطور، يمكن رصد مراحله مع سقراط وأفلاطون، وأرسطو والسفسطائية كحركة فلسفية وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد تميز روادها بالكفاءة اللغوية والخبرة الجدلية، وذلك ما عكسته تسميتهم «التي كانت تعني الحكيم الخبير بكل فن وأسلوب»².

إذا اهتم السفسطائيون ببلاغة القول ومتعلقاتها، بل اتخذوها حرفة يلقنونها لأبناء الأعيان مقابل مبالغ مالية، حتى لا تدرك العامة تلك الأساليب، فيسهل بذلك إقناعهم ووقوعهم تحت سلطة القول؛ هذه النظرة أدخلتهم في صراع مع أفلاطون الذي رأى أن مبالغتهم في الاهتمام بزخرف القول يعد مغالطة للعوام، وهو ما دفعه لتصدى لهذه الممارسات الحجاجية، بالاعتماد على إستراتيجيات كشف القناع عن أغاليطهم ومزاعمهم وتلاعباتهم اللغوية.

ولعلّ من أبرز السبل التي سلكها أفلاطون في مجابهة السفسطائية وأساليبها، تفريقه بين نوعين من الإقناع، وهما «إقناع يعتمد العلم، وإقناع يعتمد الظن، وهذا الثاني هو موضوع الخطابة السفسطائية، (فالأول) مفيد لأنه يكسب منه الإنسان المعرفة، أما الظن فليقاه على الممكن probable والمحمّل vraisemblable ... لا يكسب الإنسان المعرفة، بل ينشئ لديه اعتقاداً croyance...»³، فنظرة أفلاطون إلى الحجاج كانت من زاوية مثالية خالصة، الأمر الذي دفع تلميذه أرسطو إلى

معارضته، من خلال طرحه الجديد، الذي جعل من الحجاج قاسماً مشتركاً بين الخطابة والجدل، فالحجاج عند أرسطو هو «فن الإقناع أو مجموع التقنيات التي تحمل المتلقي على الاقتناع أو الإذعان، وهو حديث يستدعي ضرورة مصطلحاً آخر هو الجدل...»⁴، الأمر الذي أدى إلى أن ترافق الخطابة المغالطة والخداع والإيهام، ويجعلها مهمة بتشويه الحقيقة وتزييف الواقع.

أما البحث عن الحجاج في الدرس اللساني المعاصر، فيستوقفنا عند أول من استعمل مصطلح الخطابة الجديدة سنة 1958م وهو "بيرلمان Ch. Perlman" وزميله "تيتكا Olbrechts.Tyteca" في كتابهما "مصنف في الحجاج" والذي يعتبر فتحاً جديداً وأساساً في عالم الخطابة الجديدة «بوصفها خطابة تستهدف عقل المتلقي والتأثير في سلوكه أي الإقناع»⁵، إذ قدم برلمان مفهوماً للحجاج بأنه «جملة من الأساليب التي توظف في الخطاب لاستثارة المتلقي وحمله على الاقتناع (والتصديق) بما يعرض عليه من أطروحات، أو الزيادة في حجم هذا التصديق»⁶؛ مؤكداً أن غاية الحجاج الأساسية إنما هي التأثير في المتلقي، ودفعه لاتخاذ موقف اتجاه ما يسمع.

والحجاج بوصفه علاقة تخاطبية، فهو يقوم بالضرورة على مبدئين أساسيين هما: المعقولية والمقامية، بهدف تحقيق الحرية الإنسانية من حيث هي اختيار عاقل، إذ أن «الحجاج غير الملزم وغير الاعتباري هو وحده ... الذي يحقق الحرية الإنسانية من حيث هي ممارسة لاختيار العاقل، فأن تكون الحرية تسليماً اضطرارياً (إلزامياً) بنظام طبيعي معطى سلفاً، معناه انعدام كل إمكانية للاختيار، وإن لم تكن ممارسة الحرية مبنية على العقل، فإن كل اختيار يكون ضرباً من الخور، ويستحيل إلى حكم اعتباري يسبح في فراغ فكري»⁷، وهنا تنتفي إنجازية الخطاب.

وعليه فمن المقاصد الكبرى التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها «إحداث تغيير في الموقف الفكري والعاطفي للمرسل إليه»⁸؛ وهو ما يعرف بالاستمالة، أي استمالة المتلقي لما يعرض عليه من آراء والتأثير العملي في سلوكه، وهو ما يجعل الخطاب الحجاجي «عملية اتصالية يستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين... لهذا فإن الباعث الأول للحجاج هو الاختلاف، إذ لا نحاجج في أمر مأخوذ على حقيقة يقينية راسخة، وإنما نحاجج... فيما هو مرجح، وممكن، محتمل...»⁹.

بينما نجد "ديكرو O. Ducrot" وزميله "جان كلود انسكومبر C. Anscombre" قد أعطيا أهمية كبرى للحجاج من زاوية تختلف عن نظرة برلمان في مؤلفهما (الحجاج في اللغة)، إذ نظرا إليه على أنه خطاب «يقوم على اللغة بالأساس، بل يكمن فيها؛ بينما عرّف برلمان الحجاج باعتباره مجموعة أساليب وتقنيات في الخطاب، تكون شبه منطقية أو شكلية أو رياضية»¹⁰، أي أن المتكلم إنما يجعل قولاً ما حجة لقول آخر، هو بلغة الحجاج نتيجة يروم المتكلم إقناع المتلقي بها، إما بأسلوب صريح واضح، أو بصورة ضمنية، فقد يصرح المتكلم مباشرة بالنتيجة كما يمكن له أن يخفيها، وفي هذه الحالة يصبح دور التلقي هو كشفها باستنتاج مضمونها اعتماداً على الأرضية اللغوية المشتركة بينهما.

ويركز "ديكرو" في سياق هذه النظرية على مبدأ مهم في عملية التخاطب والتحاجج، وهو مبدأ التوجيه الذي يولد سلطة للخطاب، فتلفظنا لجملة معينة معناه أننا نحاجج للوصول إلى نتيجة معينة، لذلك فإن «نشاط اللغة التوجيهي مرتبط بالمتلقي بما هو تحصيل لنتائج هذا النشاط، أما محصلة التوجيه والحجاج فهي قيمة حقيقية»¹¹، وهي الصورة الجديدة التي أعطاها "ديكرو" للسان على أنه بلاغة متكاملة.

2. علاقة البلاغة بالحجاج:

تعددت معاني البلاغة عند العرب، وإن كان الاتفاق واضحاً حول مفهومها الجامع على أنها القدرة على التأثير في المتلقي بتوظيف أساليب لغوية معينة، ولعل أقدم المفاهيم التي يمكن أن نقف عندها في الدرس التراثي ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر (210هـ) من خلال قوله: «أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة عن كنت للعامة (...) فمدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة

الحال وما يجب لكل مقام من مقال»¹²، وهو ما يجعل البلاغة فن القول الذي يلزم صاحبه تخير لفظه، وبيان معناه، في صور تتباين بتباين الأحوال والمقامات.

بينما يرى أرسطو أن البلاغة ما هي إلا «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان»¹³، وهو ما يربط البلاغة «بالمحاجة (الحجاج)، والتطبيق الملائم لها فهو فن الخطابة-الفصاحة- الذي يهدف إلى الإثبات والإقناع بواسطة الخطاب»¹⁴، عبر تملكها الوسائل التي يمكن بموجبها إقناع السامعين، وإحداث تغيير في أفكارهم وسلوكياتهم، اعتماداً على آليات لغوية متعددة.

ولعلّ المتمعن في الحدين المعروضين للبلاغة يمكن له أن يدرك تلك العلاقة الكامنة بين البلاغة والحجاج، إذ تكمن أهمية الصور البلاغية في تلك الطاقة الجمالية التي توفرها للقول، والتي يمكن من خلالها إثارة المتلقي وتحريك مكان الإعجاب فيه، إذ ليست البلاغة إلا القول الذي «يعصف القلوب النافرة ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستعصية، وتبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة»¹⁵، وهو ما يؤكد وجود علاقة مباشرة بين البلاغة والحجاج. إذ لا مفر للحجاج من البلاغة، ففي الكثير من المواقف تصبح الصورة البلاغية السبيل الأوضح للتأثير في المتلقي، في ظل ظروف ومقامات معينة، وتصبح البلاغة لغة المحاجج وسبيله الأقرب للوصول إلى المتلقي لتعديل موقفه، فالخطاب الحجاجي لا يقتصر على الاستدلال العقلي فحسب، بل يمكن له أن يتجاوز هذه الصورة النمطية ليشمل الحجاج اللغوي، القائم على الإيهام والمغالطة حيناً، والمناورة الخطابية، التي تفتح الباب واسعاً أمام مستخدم اللغة أحياناً أخرى، لتحقيق عملية تواصلية ناجحة من جهة، وخطاب ذو فاعلية من جهة أخرى، ف«البلاغة تداولية في صميمها إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة التأثير على بعضهما»¹⁶.

3. الحجاج وفق نظرية المسألة لميشال ماير:

يري ميشال ماير (Michel . Meyre) أن عملية التخاطب في أصلها قائمة على مبدأ المسألة (السؤال)، واستعمال الكلام الحامل لقدرة الفكر على المسألة بعد فعل التفكير، ف«ليس التفكير إلا مسألة، وكذا استخدام الكلام الذي يؤدي بالفكر إلى المسألة»¹⁷، وهو ما يعني أن الكلام ككل في أصله أجوبة، وأن المتكلم سائل في كل أحواله، لا لكونه يطرح الأسئلة بصورة مباشرة فقط، بل لأنه يسعى في كلامه إلى الجواب عن أسئلة تستثيره وتحركه، وبهذا يصبح السؤال وافترض السؤال هو المحرك الأساس والباعث الوحيد لعملية التخاطب، فالخطاب وفق طرح "ميشال ماير" إفصاح بلاغي بواسطة الكلام، والكلام ليس إلا انعكاساً للفكر والعقل، ومبعث الكلام ما هو إلا سؤال يراود صاحبه ف«كل سؤال هو حاجز أو صعوبة أو حاجة، ومن ثم فهو أمر باتخاذ القرار»¹⁸

وما على المتلقي إلا الخروج من حالة المسألة التي أوقعه المتكلم فيها، من خلال البحث عن إجابة وافية، وهو ما يعني عدم جاهزية الجواب في كل الظروف، فالجواب لا يكون حاضراً بشكل مناسب إلا إذا توفرت مجموعة ضوابط تؤثر عملية السؤال، ونجاح المسألة معناه نجاح المتكلم من زاويتين اثنتين: الأولى قدرته على بناء خطاب مناسب يعبر فعلاً عن حالة الاستفهام التي يعيشها، أما الجهة الثانية فهي كفاءته في استهداف المتلقي حتى يدفعه للإجابة على هذا التساؤل الذي يراوده، والجواب وفق ما طرح "ماير" ما هو إلا نتيجة أو موقف يتخذه المتلقي إزاء المشكل المطروح، وفي سياق يوفر للمتلقي خيارات عدة للقيام بعملية الاستنتاج المرتبطة بثنائية (السؤال/ الجواب)، وهو ما يحمل الخطاب طاقة حجاجية فاعلة.

فالحجة وفق طرح "ماير" هي قدرة المتلقي على «الجواب عن وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمناً من خلال الجواب»¹⁹، باعتبار أن السؤال هو حاجة أو صعوبة تواجه المتلقي، وهو ما يدفعه إلى التعبير عن رد فعل اتجاه هذا الوضع، وبالتالي اتخاذ موقف يتجاوز من خلاله هذا الإشكال الفكري الذي يواجهه أثناء عملية التخاطب، الأمر الذي يجعل الحجاج مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالكلام ككل، إذ أن الكلام وما يحويه يدفع إلى الحجاج، انطلاقاً من طبيعة الكلام

المبنية على السؤال والجواب، فالسؤال والجواب يولدان النقاش والتحاور بين المتخاطبين والذي يفرض بدوره إلى الحجاج، وعليه فالكلام والحجاج متصلان لانفصال بينهما.

و نظرية المسألة عند "ميشال ماير" تنطلق من فكرة أن كلامنا هو إثارة للسؤال الذي ينطلق من افتراضات مسبقّة لدى المستمع، وهو ما يسمى بالمبدأ الافتراضي الذي يمكن أن يتمظهر عبر مستويات ثلاثة هي:

- المجاز والبلاغة: باعتبارهما من الاستراتيجيات التي تخلق تساؤلاً لدى المتلقي، مما يدفعه إلى البحث عن تأويل لهذه الخطابات التي تخفي وراءها دلالات ثابّة.

- السؤال والجواب: باعتبار حجاجة موقفيّاً أكثر التصاقاً بالمتلقي، يروم ملقيه إلى استمالة متلقيه وإذعانه، والتراجع عن بعض مواقفه.

- الضمني والمصرح به: إذ أن ثنائية (السائل/ المجيب) تقود إلى ما يسمى بالمعنى الضمني والمعنى المصرح به، فالمصرح به هو الظاهر من الملفوظ، أما الضمني فهو تلك الإمكانيات المختلفة التي يمكن أن يحملها الملفوظ خلف بنيته الظاهرة، والتي يمكن أن يصل إليها المتلقي عبر مجموعة من القرائن السياقية.

4. حجاجة المجاز وفق نظرية المسألة (سياق الأشكّة):

لقد ظل المجاز على مر الزمان مبحثاً بلاغياً تتماهى فيه الحدود والقواعد المعيارية التي ارتبطت باللغة في بداياتها التعقيدية الأولى، ولعلّ المتمعن في المدونة التراثية العربيّة يمكنه أن يقف على تلك الاستثناءات التي كسرت النسق النحوي بل وعقدته في كثير من الأحيان، وفتحت الباب واسعاً للتأويل تحت قاعدة "مركز قار للنحو وهامش متحرك له"، ليفسح المجال واسعاً للعديد من الظواهر الإنجازية التي تملها المعطيات السياقية أكثر من القاعدة، إيماناً من أهل البلاغة أن الخروج عن الأصل هو ضرب من المناورة الكلامية، التي تتيح للمتكلم بلوغ مقاصد أوسع من اللغة التي تخضع للقاعدة.

وبهذا يحمل المجاز طاقة دلالية تحمل بين طياتها مفهوم الانتقال، الذي يسمح بالتعبير عن المعنى بصيغة كلامية قريبة من الصيغة الكلامية الحقيقية، مع ضرورة توفر قرائن لغوية أو سياقية تعين السامع على فهم المنطوق الجديد فهما صحيحاً، وعملية الانتقال هذه هي في الأصل عملية عقلية استدلالية تسمح بخروج الكلام من صورته النظرية الشكلية إلى صورة الحدث المنجز، وهو ما يجعل المجاز معطى مدركاً بالحس والعقل، شأنه في ذلك شأن علوم البلاغة ككل، لكونها تهتم «بالكلام الذي يرسل إرسالاً، فتطلب منه الإفادة والإصابة وإفهام المعنى على وجه بديع وتركيب لطيف، وهي المعايير التي نزن بها الأسلوب على نحو ما يتحقق به غرض المنشئ، حيث يستخدم الكلمة في تحقيق ما يريد»²⁰.

ولما كان المجاز هو عملية تأويلية تعتمد أساساً على الاستدلال الذي يسعى من خلاله المتلقي إلى معرفة المقاصد التي يرمي إليها المتكلم، وهو أمر لا يتأتى إلّا من خلال وضع الكلام موضعه وقياسه، وفق الصيغة التي تبني عليها التراكيب، وهو ما يدخل المتلقي في عملية مساءلة للنفس وتأمّل وإعمال للفكر، تعينه على فهم المقصود من الكلام، والذي لا يتحقق إلّا بالانتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي، أو كما أسماها المحدثون الانتقال من البنية السطحية إلى البنية العميقة.

وبهذا يدفع المجاز صاحبه ومتلقيه إلى كثرة التمهّيس في مفردات اللغة ذاتها وقد دخلت في نسيج النص، فيبحث هذا الأخير في دلالاتها والصورة العميقة لمعناها اعتماداً على منهج تحليلي قوامه القياس، واستناداً إلى قرائن تستشف من السياق، حتى ينتهي إلى المقصود من الكلام، فتظهر الفكرة في صورة جليلة قد تكون في الكثير من الأحيان أشد وقعاً في نفس السامع من الكلام الحقيقي.

وعليه فإن عملية الانتقال من مستوى الحقيقة إلى مستوى المجاز لا تتأتى إلّا بالاحتكام إلى السياق لا إلى المعجم، ووعي بطبيعة العلاقة التي تنظم الدلالات في التركيب، وليسست هذه إلّا عملية عقلية محضة، ومثال ذلك ما قدمه الجاحظ من تفسيره لكلمة العسل في الآية الكريمة: "يخرج من بطونها شراب"²¹، إذ لاحظ أن هذه الكلمة تحمل دلالة جديدة تختلف عن الدلالة المعجمية، وهي دلالة الشراب «فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً أو نبيذاً»²²، فالعبرة

من الآية ليس إخراج العسل من بطون النحل وفقط، بل استغلاله بتحويله إلى شراب ينفع الإنسان وبيان ذلك للناس، وهو المقصد من الآية الكريمة.

ولما كانت اللغة وسيلة للتعبير وسبيل للإفهام، أو كما قال ابن جني «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»²³، فهي في النهاية موضوع متحرك يجول فيه المتكلم ويصوّل، كيف لا وهو القادر على صياغتها بأسلوبه، مقدماً، ومؤخراً لألفاظها، ومبدلاً لتراكيبها، ومنقولاً بين تعابيرها من العام إلى الخاص، ومن الخاص إلى العام، ومن الحقيقة إلى المجاز، تبعاً لما تقتضيه المعطيات الخطابية ومقاصد التخاطب، فيستعمل الألفاظ أحياناً وفق دلالاتها المتواضع عليها، وأحياناً أخرى يخرجها إلى معانٍ جديدة، وهو ما يجعل هذه اللغة كياناً متجدد عند كل استعمال.

ويذهب الدرس التداولي في هذا الباب بعيداً عندما يجعل المناورة الخطابية التي يرتكن إليها مستعمل اللغة ركناً أساسياً في عملية التخاطب، إذ لا يكفي تملك المخاطب لكفاية لغوية تتيح له صياغة وتفهم وإدراك عدد لا متناه من الجمل التي لم يسبق له سماعها أو تشكيلها، بل عليه أيضاً أن يحوز ملكة تخاطبية تواصلية، تلك التي أطلق عليها الدرس التداولي مصطلح الكفاءة التداولية، والتي تتألف «لدى مستعمل اللغة الطبيعية من خمس ملكات على الأقل وهي الملكة اللغوية والملكة المنطقية والمعرفية والإدراكية والاجتماعية»²⁴.

ففي الكثير من الأحيان تصبح الكفاءة اللغوية غير كافية في بلورة عملية التواصل وفق سياق مخصوص، ما لم تدعمها الكفاءة التواصلية التي تستثمر القوالب الكامنة في ذهن المتكلم بما في ذلك الكفاءة اللغوية، فالقوانين اللغوية «تصف ما يستطيع فعله المرسل/ والمرسل إليه في لغة معينة، أما قوانين التواصل فإنها تصف ما يستحسن فعله (...) من اختيار أفضل الوسائل تأثيراً في السلوكيات التواصلية المتبادلة»²⁵، فالخطاب المخطط له هو نتيجة الكفاءة التداولية التي تسمح بإنتاج خطاب موجه في ظروف مقامية مخصصة. وهو ما يحقق عملية تواصلية ناجحة.

وعلى هذا فنجاح عملية التواصل مرهون بتوفر جملة من المعطيات على رأسها قصدية الخطاب ووجهته، والتي ترتبط بالمرسل وكفاءته، فمن الضروري أن يحدد المتكلم مقاصد خطابه قبل التلفظ به، وهو ما يفرض عليه اعتماد استراتيجية معينة، تمتد من مرحلة تحليل السياق ذهنياً إلى اختيار العلامات اللغوية المناسبة التي تحقق منفعة، إذ لا يمكن للغة أن تتجسد وتمارس دورها الحقيقي إلا من خلال متكلم يحسن التعامل بها، ونقلها من وجودها الصوري في الذهن إلى كفاءة فعلية، تؤدي وظائف اجتماعية مختلفة، وهو ما يجعل المتكلم ذاتاً محورية في عملية التواصل، فمن الضروري أن يتمتع هذا الطرف بقدرتي الاستقبال والتنسيق، حتى يتمكن من القيام «بعملية الترميز codage، وتفكيك الرمز décodage بالرجوع إلى نظام اللغة الذي يشترك فيه مع مستقبل الرسالة»²⁶، والذي يفترض حضوره أو استحضاره قبل إنتاج الخطاب، ولحظة التلفظ به، كما يمكن أن يستمر ما بقي الخطاب ذاته.

هذا العلاقات المتداخلة بين طرفي الخطاب، هي التي تحتم التخطيط للخطاب قبل النطق به، فمن الضروري أن يكون المرسل ملماً بكل الأوضاع التخاطبية والتواصلية المحفوفة بالقول، فالعلاقة بين هذين الطرفين هي علاقة تجمع العديد من العناصر كبنية الخطاب في حد ذاته، والبيئة الاجتماعية والمستوى الثقافي، والحالة النفسية، كما أن المتلقي لا يتلقى الخطاب بحيادية، وإنما يتلقاه ضمن الإطار النفسي والاجتماعي والثقافي... إلخ الذي يحيط به، بالإضافة إلى توفر جملة من العوامل المشتركة بين طرفي الخطاب، والتي تشمل المعرفة بنظام اللغة، وكذا إدراك للظروف والعلاقات الاجتماعية والتراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات، ونمط التفكير.

وعلى هذا لم يجد الدرس التداولي داعياً للفصل بين التواصل بوصفه نشاطاً قائماً على قصدية صريحة، وبين الدلالة باعتبارها سيروية لا تتحدد إلا من خلال نية التأثير المباشر في سلوك مخاطب معين، فالتواصل يتضمن بالضرورة حالات للتدليل، والدلالة لا يمكن أن تخلو من قصدية إبلاغية صريحة أو مفترضة استناداً إلى السياق اللغوي، وعلى هذا الأساس لا يمكن تصور المجاز صورة بلاغية فحسب، بل هو فعل تواصلية يتضمن شحنة انفعالية تنتهي إلى غاية من الغايات المتعددة

للفعل التواصل، فكلمة حاد الباحث بلغته عن الحقيقة أنتج واقعاً إبلاغياً متميزاً، وبالتالي خطاباً ناجحاً استطاع أن يحرك متلقيه في صورة أثر نفسي، أو إدراك عقلي .

والمجاز استناداً إلى تحليل "ماير" هو خطاب ذو بعد حجاجي أكثر من أي مقصد آخر، كيف لا وهو خطاب يهدف بالأساس إلى الإقناع القائم على الحجة التي تبرر وجوده، إذ يفرض على المتلقي اتخاذ موقفين معينين اتجاهه:

-الأول: وهو الوقف الانفعالي العاطفي الذي يتولد عن طريق تذوق هذا التركيب (المجاز)، فكثيراً ما تكتسب اللغة طاقة إيحائية مضاعفة «حين تعدل عن المألوف وتخرج عن السمت العادي للكلام، وتظل الصورة موحية طافحة بالدلالة تفتح نوافذ على عوالم متداخلة»²⁷.

- الموقف الثاني: وهو المستوى العقلاني، الذي يفرض المجاز من خلاله على السامع تتبع المعنى الثاني الذي يتوارى خلف المعنى الظاهر، مما يفرض إلى تحقق الوجه الإقناعي للمجاز، عبر دخول الباحث والمتلقي في علاقة حوارية تنتهي لا محالة إلى تحقيق أهداف خطابية معينة، إذ يمكن أن تتمظهر عبر مستويات ثلاثة هي:

أ. المستوى العقلي: وهو مستوى تتجلى فيه كفاءة المرسل والمرسل إليه اللغوية، من خلال قدرة الأول على بناء هذا الخطاب (المجاز) على هذه الصورة المخصصة، وكفاءة الطرف الثاني في فهم هذا التركيب رغم خروجه عن القواعد المألوفة للغة، ولولا تحقق هذا المستوى لنتفت العلاقة التواصلية بين طرفي الخطاب.

ب. المستوى المعرفي: المرتبط بحجم المعرفة التي يحملها هذا التركيب (المجاز) سواء أكانت معرفة جديدة، أم معرفة يحوزها المتلقي من قبل، وهنا يأتي دور المجاز في تعزيزها وتثبيتها في الذهن، وبالتالي النأي بالمتلقي عن تغيير اعتقاده.

ج. المستوى الإيماني: ويتمثل في استمالة المتلقي عاطفياً، وتحفيز ذهنه على تذوق هذا الفن اللغوي، وبالتالي إيمانه، ف«أهمية الوسائل البلاغية تكمن فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه...ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها له»²⁸، وهذا هو مكن الحجاج وأساسه.

وعليه فحجاجة المجاز تكمن في هذا الجو العقلي والمعرفي والعاطفي الذي يفرضه على متلقيه، استناداً إلى عملية استدلالية معقدة، تهدف بالأساس إلى الانتقال من المعنى الظاهر إلى المعنى الخفي، فالظاهر أو المصرح وفق نظرة "ماير" هو ظاهر السؤال، أما الضمني فهو مجمل الإمكانيات المختلفة للإجابة على هذا السؤال، وهنا تتشكل مسألة الذات والآخر، إذ أن «إثارة السؤال أو استدعاءه له لزم أن يتولد عن ذلك نقاش يولد بدوره حجاجاً، فالحجاج (وفق نظرة ماير) محايت لاستعمال الكلام، لأن الكلام يتضمن بالقوة سؤالاً يستمد منه دلالاته»²⁹.

فعادة ما يشد السؤال المتلقي ويدفعه إلى البحث عن إجابة له، وبالتالي البحث عن معرفة جديدة، بل إن السؤال كثيراً ما يوظف لتوجيه المتلقي نحو طرح معين، وبالتالي توجيه الخطاب وتملك سلطة جديدة وهي سلطة الخطاب. وهو ما يبرر طرح "ميشال ماير" حين قال عن المجاز إنه: «يخلق المعنى ويصدم كل من لا يشاطر المتكلم وجهة نظره، وهو إلى ذلك طريقة للتعبير عن الأهواء والانفعالات والمشاعر التي هي صورة عن الإنسان مثلما يكون المجاز صورة من الأسلوب»³⁰.

خاتمة:

خلاصة القول إن الباحث في هذا الباب يمكن له أن يدرك أهمية توظيف المجاز بكل أشكاله في عملية بناء الخطاب الحجاجي، كيف لا وهو خطاب بلاغي يهدف بالأساس إلى التأثير العقلي، والإغراء العاطفي، وهو ما يبرر دعوة ميشال ماير إلى ضرورة تجاوز النظرة السطحية للخطاب الحجاجي، على أنه خطاب تقريرتي دعامته التذليل والبرهان، إلى استغلال وظيفة المسألة في نطاق الملفوظ الذي يجري التصريح به، فمجرد التلفظ بخطاب في الأصل تعبير عن موقف أو إفصاح عن شعور ورغبة، وبعبارة أدق هو مجاهرة بسؤال، وطرح قضية للنقاش، بل وإلزام السامع بالبحث عن جوابه الذي يفترض أن يكون في موقف المعارض أو المتروك، وهو ما يدفعه إلى إنتاج خطاب آخر يجيب من خلاله على هذا التساؤل، ما يعطي الخطاب ديمومة لا تتوقف لمجرد أن نصمت.

ولعلّ من أبرز قرائن التي تؤكد على حجاجة المجاز السلطة التي يمارسها على متلقيه من خلال دفعهم للقيام بعملية تأويلية قوامها الاستدلال، قصد البحث عن المعاني الخفية الثاوية خلف التعابير الصريحة الظاهرة، الأمر الذي يجعله فعلاً تواصلياً ناجحاً، يتضمن شحنة انفعالية تنتهي إلى تحقيق هدف معين من الأهداف المتعددة للفعل التواصل، والتي تتجاوز في الكثير من الأحيان الشق الجمالي الفني إلى الجانب الحجائي العقلي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. بلعيد صالح ، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية. د/ط، الجزائر، 1993.
2. بومزير الطاهر ، التواصل اللساني والشعرية-مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكسون_ الدار العربية للعلوم ناشرون/منشورات الإختلاف. ط1، لبنان/الجزائر، 2007.
3. الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين. مج 1. تح/ موفق شهاب الدين. منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 1998.
4. جميل عبد المجيد: البلاغة والاتصال. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط، القاهرة، 2000.
5. ابن جني أبو الفتح عثمان ، الخصائص، ج1، تح/ محمد علي النجار، دتر الكتاب العربي، د/ط، بيروت. د/ت.
6. جورج مولنيه، الأسلوبية، تر/يسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 بيروت، 2006.
7. الدريدي سامية ، الحجاج في الشعر العربي القديم – من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة-عالم الكتب الحديث، د/ط، الأردن، 2008.
8. الريفي هشام ، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، مطبوعات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، سلسلة آداب، مجلد xxx1x، د/ط، منوبة، تونس ، د/ت.
9. الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان ، 2004.
10. صولة عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية، ج1، ط2، دار الفرابي، لبنان، 2007.
11. طاليس أرسطو: الخطابة، تر/عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، ط2، الكويت، 1978 .
12. الطلبة محمد سالم محمد الأمين ، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1. لبنان، 2008.
13. العسكري أبو الهلال ، الصناعتين، تح/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، ط2، لبنان، د/ت.
14. فضل صلاح ، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، د/ط، الكويت، 1992.
15. القارصي محمد علي ، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال ماير، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى الآن،، إشراف حمادي صمود، مطبوعات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، سلسلة آداب، مجلد xxx1x، د/ط، منوبة، تونس ، د/ت.
16. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل ، لسان العرب، دار صادر، المجلد الرابع، ط1، بيروت، 2000.
17. Chaim perelman et Lucie Olbrech –tyteca , traité de l'argumentation, Édition de l'université de Bruxelles, 6ème édition, 2008.
18. Michel Meyer, de problématologie , philosophie, science de langage, Mardage, Bruxelles, 1986.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ ابن منظور محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، لسان العرب، (مادة ح ج ج) دار صادر، المجلد الرابع، ط1، بيروت، 2000، ص3938.
- ² الطلبة محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة -بحث في بلاغة النقد المعاصر-دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1. لبنان، 2008، ص24.
- ³ هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، مطبوعات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، سلسلة آداب، مجلد xxx1x، د/ط، منوبة، تونس ، د/ت، ص63.
- ⁴ المرجع نفسه. ص18.
- ⁵ جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط، القاهرة، 2000، ص105.
- ⁶ Chaim perelman et Lucie Olbrech –tyteca , traité de l'argumentation, Édition de l'université de Bruxelles, 6ème édition, 2008. p59.
- ⁷ Ibid, P111.
- ⁸ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، لبنان ، 2004، ص444.

⁹ عبد المجيد جميل، البلاغة والاتصال، ص 107.

¹⁰ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم – من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة-عالم الكتب الحديث، د/ط، الأردن، 2008، ص 22.

¹¹ المرجع نفسه، ص 104.

¹² الجاحظ أبو عثمان عمر بن بحر: البيان والتبيين، مج 1، تح/ موفق شهاب الدين. منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، ط 1، لبنان، 1998، ص 99.

¹³ أرسطو طاليس، الخطابة، تر/ عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، ط 2، الكويت، 1978 ص 29

¹⁴ جورج مولنيه، الأسلوبية، تر/ بسام بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2 بيروت، 2006، ص 37.

¹⁵ أبو الهلال العسكري، الصناعتين، تح/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل، دار الفكر العربي، ط 2، لبنان، د/ت، ص 100.

¹⁶ المرجع نفسه، ص نفسها.

¹⁷ Meyre Michel, de problématique, philosophie, science de langage, Mardage, Bruxelles, 1986, p203.

¹⁸ Ipid, p 124.

¹⁹ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية، ج 1، ط 2 دار الفرابي، لبنان، 2007، ص 41.

²⁰ صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية. د/ط، الجزائر، 1993، ص 41.

²¹ سورة الواقعة، الآية 56.

²² الجاحظ، البيان والتبيين، ص 153.

²³ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج 1، تح/ محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، د/ط، بيروت، د/ت، ص 33.

²⁴ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 57.

²⁵ المرجع نفسه، ص 59.

الطاهر بومزير: التواصل اللساني والشعرية-مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون. الدار العربية للعلوم ناشرون/منشورات الاختلاف، ط 1،

²⁶ لبنان/الجزائر، 2007، ص 25.

²⁷ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص 439.

²⁸ المرجع نفسه، ص 120.

²⁹ محمد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظرية المسألة لميشال ماير، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى الآن، ص 394.

³⁰ Meyre Michel, de problématique, philosophie, science de langage, p98.